

دراسة (مجلة سياسات عربية، العدد ١: آذار / مارس ٢٠١٣)

السودان وإيران: رحلة التقارب والمشهد العربيّ الراهن*

د. النور حمد | أبريل ٢٠١٣

* هذه الدراسة منشورة في العدد الأول من دورية "سياسات عربيّة" (آذار / مارس ٢٠١٣، الصفحات ٥٨-٧١)، وهي دورية محكّمة تعنى بالعلوم السياسيّة والعلاقات الدوليّة والسياسات العامّة، يصدرها المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات كل شهرين.

السودان وإيران: رحلة التقارب والمشهد العربيّ الراهن

سلسلة: دراسات (مجلة سياسات عربية، العدد ١: آذار / مارس ٢٠١٣)

د. النور حمد | أبريل ٢٠١٣

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات مؤسّسة بحثيّة عربيّة للعلوم الاجتماعيّة والعلوم الاجتماعيّة التطبيقيّة والتّاريخ الإقليميّ والقضايا الجيوستراتيجية. وإضافة إلى كونه مركز أبحاثٍ فهو يولي اهتمامًا لدراسة السّياسات ونقدها وتقديم البدائل، سواء كانت سياسات عربيّة أو سياسات دوليّة تجاه المنطقة العربيّة، وسواء كانت سياسات حكوميّة، أو سياسات مؤسّسات وأحزاب وهيئات.

يعالج المركز قضايا المجتمعات والدول العربيّة بأدوات العلوم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والتاريخيّة، وبمقاربات ومنهجيّات تكامليّة عابرة للتّخصصات. وينطلق من افتراض وجود أمن قوميّ وإنسانيّ عربيّ، ومن وجود سماتٍ ومصالح مشتركة، وإمكانيّة تطوير اقتصاد عربيّ، ويعمل على صوغ هذه الخطط وتحقيقها، كما يطرحها كبرامجَ وخططٍ من خلال عمله البحثيّ ومجمل إنتاجه.

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات
شارع رقم: ٨٢٦ – منطقة ٦٦
الدفنة
ص. ب: ١٠٢٧٧
الدّوحة، قطر
هاتف: ٤٤١٩٩٧٧٧ ٩٧٤+ | فاكس: ٤٤٨٣١٦٥١ ٩٧٤+
www.dohainstitute.org

ملخّص

تناقش هذه الدراسة علاقات السودان بإيران، على خلفيّة الهجمات الجويّة الإسرائيليّة العديدة على السودان، وتتساءل إذا ما كان النظام الحاكم في السودان يرجّح في معالجة همومه السياسيّة والأمنيّة الكفّة الإيرانيّة على الكفّة العربيّة، أم أنّه لا يرى تناقضًا أو مشكلةً في اللّعب على الحبلين. تنظر الدراسة أيضًا، في أحلام الرّيادة والزعامة الإسلاميّة ونزعة التثوير العابرة للأقطار لدى حسن الترابي، وتأثير تلك النزعة في تلامذته في نظرتهم وارتباطهم بإيران. كما تأخذ الدراسة الدّعم الإيرانيّ للإسلاميّين في غزّة عبر السودان كنموذجٍ للتعاون، تنظر من خلاله إلى تقاطعات التكتيكي على المدى القصير، مع الإستراتيجي على المدى الطويل. وتناقش الدراسة أيضًا وصول الإسلاميّين إلى السلطة نتيجةً للثورات العربيّة، واحتمال انبعاث نزعة التثوير العابرة للأقطار المتضمّنة في أصل أدبيات الإخوان المسلمين، وانعكاس ذلك الانبعاث على علاقة الدول العربيّة ببعضها بعضًا، وعلاقتها مجتمعةً أو منفردةً بإيران.

المحتويات

مدخل

اندلعت الثورة الإيرانيّة عند أصيل حقبة الحرب الباردة، فحرّك اندلاعها أحلام الكتلة الثالثة الراقدة في أفئدة الإسلاميّين العرب. يقول عزمي بشارة عن حركة الجهاد: "لقد تأثّرت حركة الجهاد، منذ البداية، بمبادئ الثورة الإسلاميّة على غرار حركاتٍ سنّيةٍ كثيرة ألهبت هذه الثورة خيالها، بما في ذلك الإخوان المسلمون"[١]. ويمكن القول أيضًا إنّ الإسلاميّين العرب مالوا إلى الثورة الإيرانيّة بجامع التّوق لدى الفريقين في خلق كتلةٍ إسلاميّةٍ فاعلةٍ مغايرةٍ للنموذج الغربيّ، ومنفلتةٍ من قبضة الهيمنة الغربيّة[٢]. يرى حيدر إبراهيم أنَّ ميل الإسلاميّين السودانيّين للثورة الإيرانيّة، في بدايات حكمهم للسودان، قد جسَّده تقاربهم معها ومحاولة الاستفادة من خبراتها، بوصفها النموذج الأمثل واقعيًّا، إذ إنّها مثّلت بالنسبة إليهم الدولة الإسلاميّة الوحيدة[٣].

أجد من الضروري جدًّا الإشارة في هذا المدخل، إلى ما يعدّه بعض الباحثين قصورًا في الانتباه وسط القيادات الإسلاميّة العربيّة التي تميل نحو إيران، إلى المكوّن القوميّ والجيوستراتيجي والمذهبيّ في الدولة الإيرانيّة، والانحصار في النظرة إليها من منظور "الأخوّة الإسلاميّة" الجامعة، دون أخذ المكوّنات الأخرى بعين الاعتبار. فالتاريخ الإيرانيّ، والعقيدة الإيرانيّة، والرؤية الإيرانيّة الجيوستراتيجية، تشير مجتمعةً إلى أنَّ إيران تتحرّك صوب محيطها الإقليميّ، من بؤرةِ طردٍ مركزيّةٍ مركّبة. وربّما يعضد هذا المنحى ما أورده طلال عتريسي حين أكّد على أنَّ الهُويّة الإيرانيّة الجديدة تدمج في وقتٍ واحدٍ، وبطريقةٍ شديدة التعقيد، الأمّة والإسلام والعالم[٤]. ويؤكّد أوليفييه روا أنّ إخفاق إيران في اختراق العالم السنّي قد جعلها تتصرّف كقوّة إقليميّة، وفق محاور شديدة الشبه بتلك التي

---

[١] عزمي بشارة، "العرب وإيران– ملاحظات عامّة"، في: مجموعة من الكتاب، **العرب وإيران: مراجعة في التاريخ والسياسة** (الدوحة/بيروت: المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٢)، ص ٢٤.

[٢] أوليفييه روا، **تجربة الإسلام السياسي**، ترجمة نصير مروه، ط٢ (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٦)، ص ١١٨.

[٣] حيدر إبراهيم، **سقوط المشروع الحضاريّ** (الخرطوم: مركز الدراسات السودانيّة، ٢٠٠٤)، ص ٣٥.

[٤] طلال عتريسي، **الجمهوريّة الصعبة: إيران في تحولاتها الداخليّة وسياساتها الإقليميّة** (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٦)، ص٢٤.

كان يعتمدها الشاه[٥] الشاهد أنّ القوميّ والدينيّ والمذهبيّ والعرقيّ والمصلحيّ، تختلط اختلاطًا مُربِكًا في الطبيعة الإيرانيّة المركّبة. فإيران، كما ينبّه عزمي بشارة، تستثمر داخليًّا في هُويّة إيرانية شاملة، لكنها لا تغضّ الطرف تمامًا عن الاستثمار في ماضيها الإمبراطوريّ الفارسيّ[٦]. والماضي الإمبراطوريّ اتّسم في معظم منعطفاته بنزعة المدّ والتوسّع. ويرى محجوب الزويري أنّ تاريخ القرن العشرين أثبت أنَّ عاملَي الدين والهُويّة يبقيان حاضرين وبقوّة في الحالة الإيرانيّة، فوجود مَلَكيّة علمانيّة، كما كانت الحال في فترة حكم الشاه، لم يطمس تمامًا الهُويّة الدينيّة الشيعيّة ببعدها القوميّ الفارسي[٧].

وفي السّياق نفسه، يشير وجيه كوثراني إلى أنَّ العلاقة بين العرب وإيران لها صورٌ متعدّدةٌ لدى الطرفين؛ فصورةٌ منها تعكسها مرآة الإسلام، وصورةٌ ثانية تعكسها مرآة القوميّة، وثالثةٌ تعكسها مرآة المذاهب، ورابعةٌ تعكسها مرآة الجغرافيا السياسيّة والاقتصاديّة والبشريّة. ويضيف كوثراني أنّه ليس من بين هذه المرايا، مرآةٌ صافيةٌ بحدِّ ذاتها. فاللون الغالب واللون الرئيس في الفهم المتبادل بين العرب والإيرانيّين، لونٌ متحوِّلٌ يأخذ أطيافًا عدّة، يصفه كوثراني بأنّه:

> قد يكون إسلاميًّا مشتملًا ومحتويًا المضمون القوميّ، وقد يكون قوميًّا مرتكزًا على الإسلام، أو قد يكون قوميًّا عنصريًّا نافيًا الإسلام، أو قد يكون نفعيًّا خالصًا جاعلًا من مصالح الدولة وجغرافيّتها الاقتصاديّة نطاقًا لـ"أمنها القوميّ" مع استخدامٍ وظيفيٍّ للإسلام والقوميّة معًا. وقد تكون الصورة أحيانًا مزيجًا معقّدًا من هذه العناصر جميعها[٨].

---

[٥] أوليفييه روا، ص ١٧٦.

[٦] عزمي بشارة، ص ١٠.

[٧] محجوب الزويري، إيران والعرب في ظلال الدين والسياسة عبر التاريخ، في: مجموعة من الكتاب، **العرب وإيران: مراجعة في التاريخ والسياسة** (الدوحة/بيروت: المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٢)، ص ٧٠.

[٨] وجيه كوثراني، الإدراك المتبادل بين العرب والإيرانيّين، في: **العلاقات العربيّة الإيرانيّة – الاتجاهات الراهنة وآفاق المستقبل: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظّمها مركز دراسات الوحدة العربيّة بالتعاون مع جامعة قطر** (مجموعة مؤلفين)، ط ٢ (مركز دراسات الوحدة العربيّة، ٢٠٠١)، ص ١٦٦.

تنظر بعض الحركات الإسلاميّة في العالم العربيّ إلى إيران كحليفٍ إسلاميٍّ مهمٍّ يشكّل بالضرورة، قوّةً داعمةً وسندًا يُعَوَّل عليه في المعركة ضدّ الهيمنة الغربيّة. ولا يحتاج المرء في هذا المنحى إلى أكثر من الإشارة إلى حزب الله في لبنان، وحركة حماس في غزّة، وحكومة الإسلاميّين في السودان.

التكتيك والإستراتيجيا

تنطلق هذه الدراسة من افتراض وجود جسمٍ عربيٍّ جامعٍ ذي مصالحَ جيوستراتيجية مشتركة. وبطبيعة الحال، فإنّ وجود تنظيمٍ تأسَّس طوعًا يجمع الدولة العربيّة كلّها بلا استثناء، يسمّى "جامعة الدول العربيّة"، يعني – بقدرٍ معقول – أنَّ هذا الجسم متجانسٌ في ما يتعلّق ببنيته وطبيعته التاريخيّة، إلى الحدّ الذي يجعل منه جسمًا ذا أمنٍ مشترك، حتّى وإن كان في حالة الكمون لا في حالة التجسُّد البادية للعيان. ولكن، على الرغم ممّا يتّسم به هذا الجسم من وحدةٍ عضويّة، فإنه يتّسم أيضًا بتنافر الرؤية السياسيّة. هذا التنافر – وهو تنافرٌ تتغيّر خريطته كلّ آونةٍ وأخرى – يخلق خلطًا بين الثوابت القوميّة والمصالح الآنيّة القطريّة. في هذا الخلط الذي تدخل فيه أطرافٌ أخرى من خارج المنظومة، يتعارض التكتيكي مع الإستراتيجي ويتقاطع معه تقاطعًا حادًّا. ولعلّ تقارب بعض الدول العربيّة مع إيران يمثّل بعضًا من التجسيد الحيّ لهذه الإشكاليّة. يرى أوليفييه روا أنّ إيران تحتاج إلى الخروج من "محتبسها الشيعيّ" (غيتو Ghetto) إلى مراكزَ سنّية، وعلى الرغم من أنّه يسعها دائمًا استخدام حسن الترابي في عمليات محدّدة، لكن من غير المحتمل أن يقيم الإخوان المسلمون المعادون للتشيّع تحالفًا إستراتيجيًّا دائمًا مع إيران[٩]. ولذلك، فإنّ تقارب السودان وتقارب فصائل الإسلاميّين في غزّة مع إيران، على النحو الذي هو عليه، يعكس بصورةٍ كبيرة حالة التكتيكي الذي يتقاطع بطريقة حادّة مع الإستراتيجي. ويختلف هذا عن نموذج حزب الله في لبنان، والذي لا يتقاطع فيه التكتيكي القصير الأجل مع الإستراتيجي ذي الأجل الطويل، بقدرٍ ملحوظ. أمّا في حالة ارتباط السودان وفصائل غزّة بإيران، فإنّ التناقض المذهبي الحادّ وتعارض المصالح على المدى الأبعد، يحبسان هذا التعاون في خانة التكتيك وحدها.

ما من شكّ في أنَّ كلًّا من إيران والتنظيمات السياسيّة الإسلاميّة السنّية في الأقطار العربيّة تعي

[٩] أوليفييه روا، ص ١٨٨–١١٩.

إشكالية هذا التعاون المرحلي. ولكن، يبدو أنَّ كلَّ طرفٍ من هذين الطرفين يظنّ أنَّه سيكون الرابح الأكبر من حالة التحالف التكتيكية المرحليّة هذه، وأنَّه سيُراكِم هذا من التحالف في نهاية المطاف، ما يصبّ في رصيده الخاصّ، ما يضمن له وضعًا أفضل على المدى الإستراتيجي البعيد. ولذلك، ربّما تكون الاستفادة تكتيكيًّا من إيران، هي ما يجعل هذه الحركات الإسلاميّة العربيّة تغضّ الطرف عن المطامع الإيرانيّة والطبيعة التاريخيّة للدولة الإيرانيّة، وعن كون إيران نزّاعة بطبعها إلى التأثير الجذريّ في الفضاء العربيّ الإسلاميّ. ولو نظرنا إلى الأمر نظرةً واقعيّةً، فإنَّ منظّماتٍ إسلاميّةً مثل حماس والجهاد الإسلاميّ، محاصرة إسرائيليًّا وأميركيًّا، ثمّ فلسطينيًّا وعربيًّا، مضطرّة إلى قبول العون المالي والعسكريّ الإيرانيّ. ولقد اضطرّت حماس مؤخّرًا إلى أن تختلف مع الإيرانيّين بشأن الثورة في سورية، ممّا أحدث شيئًا من عدم التناغم لطّفت منه الدبلوماسيّة كثيرًا. غير أنه أربك التكتيكي دون شكّ. ويشرح عزمي بشارة مأزق حماس في التعامل مع إيران بقوله: "إنَّ حركة حماس في وضعها الحالي كانت تفضّل من حيث طبيعتها الأيديولوجيّة، وبدرجةٍ أكبر، بسبب قواعدها الاجتماعيّة في العالم العربيّ، لو تلقّت هذا الدّعم الذي تتلقّاه حاليًّا من إيران من دولةٍ عربيةٍ مثل المملكة العربيّة السعوديّة"[١٠].

هذه الحاجة المُلجئة إلى الدّعم والعون ربّما تكون هي السبب وراء غضّ القادة السياسيّين الإسلاميّين السنيّين الطرف عن النواة الصلبة للثورة الإيرانيّة المنغرسة في تربة الغنوص الدينيّ المتمركز حول عقيدة الإمام الغائب وولاية الفقيه[١١]. وعمومًا، فإنّ المرجعيّة الفقهيّة والتاريخيّة الشيعيّة متعارضة مع المرجعيّة السنّية. لكن، الحاجة الماسّة إلى العون المالي والعسكريّ والسياسي، ربّما تجبر متّخذَ القرار السياسيّ، في الأحوال الضاغطة، على التحوّل من مبدئيّة الموقف إلى براغماتيّته، وهذا ينطبق على حكومة السودان، مثلما ينطبق على حماس. أمّا في ما يتعلّق بالجانب الآخر القادر على تقديم العون من داخل المنظومة العربيّة، فإنَّ حكّام المملكة العربيّة السعوديّة ودولة الإمارات العربيّة المتّحدة وسلطنة عمان والكويت، ربّما تكون خشيتهم من حركة الإخوان المسلمين، في الوقت

---

١٠ عزمي بشارة، ص ٢٥.

١١ مهند مبيضين، **الفكر السياسيّ الإسلاميّ والإصلاح: التجربتان العثمانية والإيرانيّة** (بيروت، الدار العربيّة للعلوم، ٢٠٠٨)، ص ١١٩.

الحالي، تماثل خشيتهم من إيران أو تزيد عليها. ولقد تعاظمت تلك الخشية بصورةٍ كبيرةٍ منذ إعلان التنظيم الدوليّ للإخوان المسلمين موقفه الذي كان داعمًا للعراق بعد غزوه الكويت.

لجأ الإخوان المسلمون إلى المملكة العربيّة السعوديّة، بُعَيْد منتصف القرن الماضي، فارّين من بلدانهم بسبب المدّ اليساريّ العروبيّ الذي نكّلت أنظمته الحاكمة بهم، فاحتضنتهم السعوديّة التي كانت تخشى وقتها من المدّ الشيوعيّ ووكلائه في الإقليم المتمثلين في اليسار العربيّ الماركسيّ والقوميّ. في تلك الحقبة، مثّل فكر الإخوان المسلمين ترياقًا ضدّ خطر المدّ الشيوعيّ الذي كان يخيف السعوديّين وحلفاءهم الأميركيّين؛ أصحاب المصلحة الكبرى في وقف الزحف الشيوعيّ في المنطقة العربيّة. غير أنَّ السعوديّة عادت مؤخّرًا فغيّرت موقفها منهم. فالمشهد في جملته تغيَّر تغيُّرًا كبيرًا جدًّا. ولقد جرى تأكيد موقف السعوديّة المناوئ للإخوان على لسان وزير داخليّتها الراحل، نايف بن عبد العزيز[١٢]. وطفحت النبرة المعادية للإخوان، وبشدّة في تصريحات وزير خارجيّة الإمارات، عبد الله بن زايد، إضافةً إلى مدير شرطة دبي، ضاحي خلفان[١٣]. ويبدو أنَّ هناك تصعيدًا حادًّا في اللهجة بين الإماراتيّين وشخصيّات بارزة في حركة الإخوان المسلمين المصريّة، ومن ذلك التصعيد إعلان الإمارات القبض على مجموعة مصريين أسمتها السلطات الإماراتيّة خليّة إخوانية مصريّة تعمل داخل الإمارات[١٤]. وعمومًا، ازدادت المخاوف من حركة الإخوان المسلمين في بعض الدول الخليجيّة، بعد الثورات العربيّة التي انطلقت من تونس في عام ٢٠١١، وأخذت في الانداياح في الفضاء العربيّ العريض، بل ظهرت في بلدانٍ خليجيّة كالبحرين والكويت، وبقدرٍ أقلّ في سلطنة عمان.

---

[١٢] راجع صحيفة **الرياض**، عدد ١٢٥٧٨، ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢، فقد ورد فيها من مقابلة مع وزير الداخلية السعودي السابق نايف بن عبد العزيز قوله: "عندما حصل غزو العراق للكويت جاءنا علماء كثيرون على رأسهم عبد الرحمن خليفة، ومعهم الغنوشي، ومعهم الترابي، والزنداني، ومعهم أربكان وآخرون. أوّل ما وصلوا اجتمعوا بالملك وبوليّ العهد وقلنا لهم هل تقبلون بغزو دولة لدولة؟ هل الكويت تهدّد العراق؟ قالوا والله نحن أتينا فقط لنسمع ونأخذ الآراء. بعد ذلك وصلوا العراق وتُفاجأ بهم يصدرون بيانًا يؤيّد الغزو العراقي للكويت". وورد في المقابلة نفسها قول الأمير نايف: "أقولها من دون تردّد إنّ مشكلاتنا وإفرازاتنا كلّها – وسمّها كما شئت – جاءت من الإخوان المسلمين".

[١٣] مصطفى خليفة، "فكر الإخوان المسلمين لا يؤمن بالدولة الوطنيّة"، صحيفة **البيان** الإماراتية، ٩/١٠/ ٢٠١٢ .

[١٤] حبيب الصايغ، "القبض على خليّة من تنظيم الإخوان المصري في الإمارات"، صحيفة **الخليج** الإماراتية، ٢٠١٣/١/١.

علاقات السودان وإيران

على ضوء المؤشّرات التي سبق ذكرها في مدخل هذه الورقة، تجيء النظرة إلى علاقة السودان وإيران. فهي علاقة بين حركة سياسيّة راديكاليّة إسلاميّة سنّية تمثّلها الحركة الإسلاميّة في السودان، وحركة سياسيّة راديكاليّة شيعيّة تمثّلها الثورة الإسلاميّة في إيران التي أطاحت بالحكم الشاهنشاهي في عام ١٩٧٩. وعلى الرغم من هذه السّمة الإسلاميّة الراديكاليّة المشتركة بين السودان وإيران، فإنَّ العلاقة بينهما ليست راسخةً تمامًا، لأنه لا يوجد إجماع عليها سودانيًّا، حتّى وسط الإسلاميّين السودانيّين الحاكمين أنفسهم، كما ستبيِّن هذه الدراسة لاحقًا.

العلاقة بين السودان وإيران علاقةٌ حديثةٌ نسبيًّا، فقد تنامت علاقات السودان بإيران في فترة حكم الشاه الذي أهدى السودان قطعًا بحريّة عسكريّة كجزءٍ من إستراتيجيته في البحر الأحمر. غير أنَّ تلك العلاقات قُطعت مؤقتًا بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، كبقيّة الدول العربيّة، ورُتِّبت عودتها في ما بعد عبر الأجهزة الأمنيّة، بإعلان بيانٍ متزامنٍ في الخرطوم وطهران. وظلّت العلاقات الدبلوماسيّة قائمةً بلا انقطاع إلى ما بعد قيام الثورة الإسلاميّة عام ١٩٧٩، أي إلى ما بعد اندلاع الحرب العراقيّة – الإيرانيّة التي انحاز فيها السودان إلى جانب العراق، وأرسل جنودًا نظاميّين وسمح لأعدادٍ كبيرةٍ من المتطوّعين السودانيّين بالقتال إلى جانب القوّات العراقيّة. ويمكن القول، عمومًا، إنّ علاقات السودان الخارجيّة في الفترة الممتدّة بين خروج المستعمر البريطانيّ في عام ١٩٥٦، وصعود جعفر نميري إلى الحكم في عام ١٩٦٩ قد اتّسمت بعدم الانحياز[١٥]. ولقد مال نميري إلى توجّهات السادات الذي استضاف شاه إيران على الأراضي المصريّة، بعد خلعه. كما أنَّ نميري دعم موقف نظام السادات لدى توقيعه اتفاقيّة كامب ديفيد مع الإسرائيليّين، ثمّ أعقب نميري ذلك بتعاونه مع الإسرائيليّين في ترحيل اليهود الفلاشا من إثيوبيا إلى إسرائيل. وهكذا باعد نميري بين نفسه وبين بداياته اليساريّة الأولى، حتّى أصبح في سنوات حكمه الأخيرة حليفًا مقرّبًا جدًّا من أميركا.

---

[١٥] عبد الوهاب الأفندي، السودان إلى أين، في: **العرب وجوارهم .. إلى أين؟** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ٢٠٠٢)، ص ٨٦.

أكثر من روّج لإيران داخل السودان هو الحركة الإسلاميّة السودانيّة بقيادة حسن الترابي الذي وصل بجماعته إلى الحكم في السودان، عقب انقلابٍ عسكريّ في عام ١٩٨٩. فمنذ نهاية السبعينيّات من القرن الماضي أخذت الحركة الإسلاميّة السودانيّة ترى في ثورة الخميني مصدر إلهامٍ لها. وهذا أمرٌ أكَّده المحبوب عبد السلام، إذ ذكر أنَّ قيام دولةٍ إسلاميّة هي الأولى في العالم على الإطلاق، أطلق في السودان مبادراتِ التظاهر المناصرة لإيران مؤكّدًا أنَّ تلك التظاهرات كانت الأولى في العالم العربيّ وأفريقيا. ويضيف المحبوب عبد السلام أنَّ تلك التظاهرات تلتها مبادراتٌ بالزيارات إلى طهران قامت بها الحركة الإسلاميّة السودانيّة، وكانت هي الأولى، إذ التقت بمُلهم الثورة ومرشدها، ثمّ جرى تبنّي فكر الثورة ورمزها والدعوة له والتبشير به[١٦].

ووفقًا للدبلوماسي السودانيّ الأسبق الرشيد أبو شامة، فإنَّ التطوّر الكبير في العلاقات بين إيران والسودان حدث قبل وصول الإسلاميّين إلى الحكم في السودان. فقد توطَّدت الصلات كثيرًا في فترة حكم الصادق المهدي (١٩٨٦ – ١٩٨٩) الذي طرح فكرة "وحدة أهل القبلة"، ومال إلى ليبيا أكثر من مصر، كما تجاوز السعوديّة إلى إيران. ولقد زار الصادق المهدي طهران بضع مرّات، كما أنه أوقف المشاركة العسكريّة في الحرب إلى جانب العراق، ولم يبدِ تعاطفًا مع الأسرى السودانيّين من العسكر والمتطوّعين الذين حاربوا إلى جانب العراقيّين. وكان الصادق المهدي على خلافٍ كبيرٍ مع وزير خارجيّته الاتحادي حسين سليمان أبو صالح الذي كان يميل إلى العراق. ولم يُطلَق سراح الأسرى السودانيّين في إيران إلا في نهايات عام ١٩٩٠. وعمومًا، فقد أغضبت مواقف الصادق المهدي وزياراته لطهران الدول الخليجيّة.

عندما جاءت حكومة الإنقاذ إلى الحكم في السودان في عام ١٩٨٩، وبحكم حاجتها إلى الاعتراف والعون، حاولت كسب ودّ الدول العربيّة خاصةً الخليجيّة منها، لتدعيم موقفها[١٧]. ولتحقيق ذلك الهدف، قامت حكومة الإنقاذ بافتعال مشكلةٍ مع إيران، قامت على أثرها بقطع العلاقات، بعد أن استدعت السفير السودانيّ في طهران. ويؤكّد أبو شامة أنَّ تلك الخطوة كانت خطوةً مفتعلة، ويطابق ذلك تمامًا ما أدلى به القيادي في الحركة الإسلاميّة السودانيّة المحبوب عبد السلام الذي أكّد افتعال

---

[١٦] المحبوب عبد السلام، **الحركة الإسلاميّة السودانيّة: دائرة الضوء خطوط الظلام، تأملات في العشريّة الأولى لعهد الإنقاذ** (القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، ٢٠٠٩)، ص ٣٢٠.

[١٧] فاطمة مبارك، بعد وصول السفن الحربيّة الإيرانيّة إلى بورتسودان: السودان وإسرائيل .. سياسة الحرب المكشوفة، صحيفة **المجهر السياسي**، ٣١ أكتوبر ٢٠١٢.

حكومة السودان المشكلة بهدف قطع العلاقات مع إيران[١٨]. وبشكلٍ عامّ، فإنَّ مختلف كُتّاب الحركة الإسلاميّة السودانيّة يؤكِّدون فتون حركتهم بالثورة الإيرانيّة، وتمثّلهم نموذجها. ومن ذلك ما أورده عبد الرحيم عمر محي الدين، إذ ذكر أنَّ الحركة الإسلاميّة في جامعة الخرطوم كانت متأثِّرةً جدًّا بشعارات الثورة الإيرانيّة ومتعلِّقةً جدًّا بشخصيّة الإمام الخميني، بحيث لا تخلو حجرة من حجرات الطلاب الإسلاميّين في السكن الجامعي لطلاب جامعة الخرطوم من صوره. بل كان الطلاب الإسلاميّون، (بعضهم ساسة وتنفيذيّون وقياديّون في الحكم السودانيّ القائم الآن)، يطلقون على حجرة السكن الطلابي التي يسكنها بعض قياديّي تنظيمهم المعروفين بالتديّن الشديد، اسم "قُمْ مدينة الآيات"، تيمّنًا بمدينة قم الإيرانيّة المقدّسة[١٩].

لم يستمرّ قطع العلاقات مع إيران طويلًا، فقد بعثت حكومة الإنقاذ في السودان بعد فترةٍ وجيزةٍ، عبدالرحمن محمد سعيد سفيرًا لها في إيران، وأعقبه على السفارة في طهران قطبي المهدي الذي كان رئيسًا لجهاز الأمن السودانيّ. ويبدو أنَّ الإنقاذ، إلى جانب إعجابها بنموذج إيران الثوري، رأت في النظام الإيرانيّ أيضًا نموذجًا أمنيًّا يمكن الاستعانة بخبراته الأمنيّة في حماية نظامها الوليد المستهدف من جهاتٍ كثيرةٍ. وقد زار السودان الرئيس الإيرانيّ حينها، هاشمي رفسنجاني، على رأس وفدٍ ضخمٍ، ووقّع مع السودان عددًا من الاتفاقيّات شملت الاقتصاد والأمن والدفاع. ودعمت إيران الحكومة السودانيّة بالمال والسّلاح وبالتدريب في قطاعات مختلفة، بما في ذلك الأمن والقضاء[٢٠].

---

[١٨] المحبوب عبد السلام، ص ٣١٩ –٣٢٠.

[١٩] عبد الرحيم عمر محيي الدين، **صراع الهوى والهُويّة، فتنة الإسلاميّين في السلطة من مذكرة العشرة إلى مذكرة التفاهم مع قرنق**، مطبعة (دمشق: دار عكرمة، ٢٠٠٦)، ص ٣٨.

[20] J. Millard Burr & Robert Collins, *Revolutionary Sudan: Hassan al_Turabi and Islamic State*, (The Netherlands: Koninkklyke Brill NV, Leiden, 2003), pp. 81–82.

الترابي وخلق كيانٍ ثوريٍّ إسلاميٍّ جامع

استخدم حسن الترابي ذريعة "التقِيَّة" في بداية حكم الإسلاميّين للسودان. فعلى الرغم من أنَّه كان الرأس المدبِّر للانقلاب العسكريّ الذي أطاح بالنظام الديمقراطي، اتّفق مع قائد انقلابه عمر البشير على أن يسجنه مع رؤساء الأحزاب السياسيّة، بغرض التمويه وإخفاء هُويّة الانقلاب. وقد ذكر الترابي أنَّه قال للبشير عشيّة الانقلاب: اذهب للقصر رئيسًا، وسأذهب للسجن حبيسًا. ولكن ما إن استتبَّت الأمور للانقلابيّين، ظهر الترابي على المسرح وتكشّفت هُويّة الانقلاب. ويورد روبرت كولينز أنَّ الترابي ثبّت في عام ١٩٩١ موقعه بصورةٍ واضحة جدًّا في الجبهة الإسلاميّة وفي نظام الحكم. ومن ثمّ، قام بإنشاء ما سُمِّي "المؤتمر الشعبيّ الإسلاميّ" الذي أراد له الترابي أن يحلّ محلّ "منظّمة الدعوة الإسلاميّة". ويورد كولينز أنَّ حرب الخليج الأولى ١٩٩١، قامت بدور العامل الوسيط المساعد في تكوين "المؤتمر الشعبيّ الإسلاميّ" الذي كان من أغراض تكوينه الرئيسة أن يكون الوعاء الحامل للثورة الإسلاميّة على مستوى العالم، ومنسِّق جهد الحركات العاملة ضدّ الإمبرياليّة في نحو خمسين قطرًا إسلاميًّا. ويستطرد كولينز فيقول: أنشأ المؤتمر بالفعل، في أوّل انعقادٍ له، ما سمّي بـ"العالميّة الإسلاميّة المسلّحة" Armed Islamist Internationale، وقد علَّقت حكومة الإسلاميّين في السودان على انعقاد الجمعيّة العموميّة الأولى لـ "المؤتمر الشعبيّ الإسلاميّ" قائلةً: "هذا أهمّ حدثٍ يحدث منذ انهيار الخلافة الإسلاميّة". ويورد كولينز أيضًا، أنَّ هذا المؤتمر قد حضرته نحو ثلاثمئة شخصيّة من السودان، إضافةً إلى مئتَي شخصيّة أخرى تمثِّل خمسًا وأربعين دولةً في العالم، كان من بينها جماعة أبو سياف في الفليبين[٢١]. ومنذ تكوين المؤتمر الشعبيّ العربيّ الإسلاميّ أصبح السودان مركزًا لتدريب المجاهدين الأفغان الذين كانوا يبحثون عن فرصٍ للجهاد في بقاعٍ إسلاميّةٍ أخرى، كالجزائر والبوسنة واليمن. ولقد استضاف الترابي أسامة بن لادن في السودان لبضع سنوات. وانضمّ إلى المؤتمر الشعبيّ العربيّ الإسلاميّ المجاهدون من الجماعة الإسلاميّة في باكستان والهند، وكذلك الحزب الإسلاميّ والجماعة الإسلاميّة الأفغانيّة، وحزب المجاهدين الكشميري، إضافةً إلى الجماعات الإسلاميّة المصريّة، وحزب الله من لبنان، وجبهة الإنقاذ الجزائرية، والجبهة القوميّة الإسلاميّة من السودان التنظيم الإسلاميّ الحاكم في البلد المضيف. وردّ خالد

---

[21] Robert O. Collins, *A History of Modern Sudan*, (Cambridge, Cambridge University PressUK 2010), p 195.

المبارك مفهوم التمكين والدولة التي تمثّل منصّة انطلاق لنشر النموذج الإسلاميّ في الدولة الأخرى. وقد أشار المبارك إلى مؤتمر تحدّث فيه جمال برزنجي ذاكرًا أنّ إيران بعد ثورتها الشعبية والسودان بعد انقلاب الإسلاميّين العسكري، يمثّلان منصّة الانطلاق هذه نحو "التمكين". ويورد المبارك أنّ رمضان عبد الله تحدّث في الوجهة التي تحدّث فيها برزنجي، وأضاف قائلًا، بما أنّ لدينا الدولتين اللتين تمثّلان منصّة الانطلاق فماذا نحن منتظرون[٢٢]؟

يورد كولينز أنّ سكرتارية عامّة برئاسة الترابي تكوّنت بنهاية المؤتمر. ويضيف كولينز أنَّ الترابي أشرف على استقطاب مجنّدين من جنوب آسيا للتدريب في معسكرات المجاهدين بالقرب من بيشاور في باكستان. وبحلول أيلول / سبتمبر من عام ١٩٩١، قام الترابي بزيارةٍ إلى باكستان. وما إن حلّ كانون الأوّل / ديسمبر ١٩٩٢ حتّى كانت أشرطة الترابي ومنشوراته وفيديوهات مقابلاته التلفزيونيّة وأشرطة مقابلاته الإذاعيّة، قد جعلت منه متحدّثًا ذا شعبيةٍ عابرةٍ للعالم الإسلاميّ[٢٣]. منذ تلك اللحظة، أخذ الترابي يروّج لفكرة المدّ الثوريّ الإسلاميّ العابر للأقطار، كما أخذ يضطلع بدور القائد لذلك المدّ، معلنًا عدم اعترافه بالحدود القطريّة للدول الإسلاميّة. ولقد خاطب الترابي في عام ١٩٩٢ الجمعيّة الملكيّة لتشجيع الفنون والصناعة والتجارة في لندن، مدينًا تأسيس الدولة القطريّة على حساب المجتمع الإسلاميّ وما أسماه بـ"دار الإسلام"[٢٤]. ويبدو أنّ إمساك الترابي بزمام الحكم في السودان هو الذي حرّك فيه النزعة العابرة للأقطار، وجعل التقارب مع إيران جزءًا من تشكيل كتلةٍ إسلامية مؤثّرة.

حسن الترابي والنموذج الإيرانيّ

يؤكّد المحبوب عبد السلام، أنَّ علاقة حكومة الإنقاذ بإيران، في عشريّتها الأولى، (١٩٨٩-١٩٩٩) جاوزت الحدّ الأدنى لتبلغ المتوسّط، ثمّ لتصل إلى درجةٍ من المتانة أصبح الإيرانيّون، بناءً عليها،

---

[22] Khalid Al-Mubarak, *Turabi's Islamist Venture*, Eldar El Thagafia, Cairo, 2001, pp. 30-31.

[٢٣] كولينز، ص ١٩٦.

[٢٤] المصدر نفسه، ص ١٩٨.

يطلقون على سودان الإنقاذ "أوّل دولة إسلامية معاصرة في العالم السنّي"[٢٥]. في عهد الإنقاذ نشط العمل الثقافيُّ والدعويُّ الإيرانيّ في السودان، وكثرت الكتب والمنشورات الإيرانيّة، وبدأ التشيُّع وسط فئة الشباب، لأوّل مرّة في تاريخ السودان. ويبدو أنَّ إيران ترى في السودان جبهةً متقدِّمةً لها للتغلغل في أقطار أفريقيا جنوب الصحراء، عن طريق نشر المذهب الشيعيّ وتقديم مختلف أنواع العون[٢٦]. ولقد كان احتفاء الإيرانيّين بحكم الإسلاميّين للسودان كبيرًا جدًّا. ويشير حيدر إبراهيم إلى مبلغ اهتمام الإيرانيّين بنظام الإسلاميّين في السودان وشعورهم بالترحيب السودانيّ بهم، بقوله إنَّ السفير الإيرانيّ في الخرطوم كمال مجيد، كان يطلق التصريحات، ويقدِّم الاقتراحات والتوصيات في الشؤون السودانيّة، في بدايات حكم الإنقاذ، وكأنه مسؤولٌ حكوميٌّ سودانيّ[٢٧].

من المثير للاهتمام في الحديث عن العلاقات السودانيّة الإيرانيّة أنَّ أكثر القادة السودانيّين تعليمًا، وأغزرهم إنتاجًا فكريًّا منشورًا، وأفصحهم لسانًا، وأكثرهم ديناميّةً في معترك السياسة السودانيّة وتأثيرًا في جمهور حزبيهما، حسن الترابي والصادق المهدي تشاركا، دون سواهما من القادة السياسيّين السودانيّين، الإعجاب بالنموذج الإيرانيّ والتجربة الإيرانيّة. وربّما يعود ذلك إلى أنّ كلا الرجلين يطرحان نفسيهما قائديْن إسلاميّيْن مجدِّديْن عالميَّيْن، أكثر ممّا يطرحان نفسيهما كقائديْن محلِّيَّيْن لقطرٍ عربيّ إسلاميّ طرفيٍّ، نصيبه من الرّيادة والمركزيّة في العالمين العربيّ والإسلاميّ في العصر الحديث قليل جدًّا. ويؤكِّد عبد الوهاب الأفندي أنَّ السودانيّين على الرغم من انتمائهم إلى قطرٍ يعاني التهميش المركّب على الصعيدين العربيّ والأفريقيّ، فجذور التديّن الصوفي فيه جعلت بعض قياداته الدينيّة تؤمن بأنَّ لها دورًا إسلاميًّا مركزيًّا. وأشار الأفندي في ذلك إلى الثورة المهديّة في القرن التاسع عشر التي قادها محمد أحمد بن عبد الله الذي ادّعى المهدويّة، وأجلى الحكم التركيّ المصريّ عن السودان. وكان عزم محمد أحمد المهدي أن يسيّر حملاتٍ عسكريّة لفتح البلدان الإسلاميّة، وإعادة المسلمين إلى "الدين الحقّ" وفق الرؤية المهدويّة. ويرى الأفندي أنَّ هذا الإحساس بالدّور الإسلاميّ

---

[٢٥] المحبوب عبد السلام، ص ٣٢٠.

[٢٦] عادل السنهوري، إيران في أفريقيا .. ومصر فين؟، صحيفة **اليوم السابع** المصرية، النسخة الإلكترونية، ٢٠١٠/٤/٢٩،

http://www1.youm7.com/News.asp?NewsID=220569

[٢٧] حيدر إبراهيم، ص ٣٥ .

المركزيّ راسخٌ في الوجدان الصوفي السودانيّ[٢٨]. وتطبيقًا لرؤية محمد أحمد المهدي، سيّر خليفته من بعده عبد الله بن محمد تورشين، حملتين عسكريّتين نحو الحبشة ومصر لكنّهما فشلتا.

أورد كولينز ملاحظةً جديرةً بالاهتمام، جاء فيها:

> في الحياة السياسيّة للسودان الشمالي، نجد أنَّ الشخصيات القويّة التي شكَّلتها، إمّا الموهبة أو الإرث الأسري، مثل إسماعيل الأزهري، والصادق المهدي، أو حسن الترابي، مستغرقةٌ في حزمة أوليّاتها الخاصّة التي لا يربطها بهموم ومصالح عامة السودانيّين، إلا القليل جدًّا[٢٩].

وبالفعل، فإنَّ نصوص حسن الترابي، وممارساته، تدلّ على أنَّه مهجوسٌ بتثوير العالم الإسلاميّ، وأنَّ عينيه ليستا على السودان إلا في حدود اتّخاذه نقطةَ انطلاقٍ ومعبرًا نحو الآفاق الواسعة التي يودُّ التأثير فيها في ما وراء الحدود. وهذا ما تؤكِّده نصوص الترابي نفسه، فهو يصف الحركة الإسلاميّة السودانيّة بقوله:

> أصبحت من أكثف الحركات الإسلاميّة العالميّة، ولعلّ مردّ ذلك ... كون الحركة ذات أفقٍ عالميٍّ رحيب وذات التحامٍ وثيقٍ مع تحدّياتٍ عالميّة المغزى... ثمّ إنَّ نموّ الحركة زاد من حاجتها وقدرتها لأن تتّخذ بعدًا عالميًّا تستعين به وتبسط ذراعًا عالميًّا تؤثّر به[٣٠].

وأودُّ أن ألفت النظر إلى أنَّ كلمة "عالمي" باشتقاقاتها المختلفة، قد وردت في نص الترابي خمس مرّات. يرى الترابي أنَّ الحركة الإسلاميّة التي يقودها، حركةٌ تهتمّ أصلًا بأمر المسلمين وبأحوال العالم، مستصحبةً إدراكها بأنَّ العالم قد غدا رقعةً واحدةً وثيقة الاتّصال. ويرى الترابي أنَّ المسلمين الأوائل، على الرغم من قلّتهم وضعفهم، مدّوا بصرهم نحو الفرس والروم، فقوّضوا إمبراطورياتهم، ومدّوا الدعوة وراء الحدود، مؤكّدًا أنَّ هذا النهج هو الذي سيكون عليه ديدن الحركة الإسلاميّة في

---

[٢٨] عبد الوهاب الأفندي، ص ٦١.

[29] Robert O. Collins, *A History of Modern Sudan*, (Cambridge: Cambridge University Press, UK 2010), p. 301.

[٣٠] حسن الترابي، البعد العالميّ للحركة الإسلاميّة: التجربة السودانيّة، في "**الحركة الإسلاميّة: رؤية مستقبليّة.. أوراق في النقد الذاتي**"، تحريرعبد الله فهد النفيسي (الكويت، ١٩٨٩)، ص ٨٠.

السّودان[٣١]. ويطابق هذا المنحى المنحى الإيرانيّ المدرج في صلب الدستور الذي تقول المادّة ١٥٤ منه، إنَّ الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، على الرغم من التزامها بعدم التدخّل في شؤون الدول الأخرى، ترى أنّها مكلّفةٌ بدعم وحماية المستضعفين أمام المستكبرين[٣٢]. ويؤكِّد المحبوب عبد السلام، أحد التلاميذ المقرّبين لحسن الترابي، مفهوم الثورة الإسلاميّة الأمميّة لدى الترابي، فيقول: إنَّ اجتهادات الشيخ حسن الترابي الواردة في محاضرته التي ألقاها في سبعينيّات القرن الماضي، في مدينة الدوحة بدولة قطر، تحت عنوان: "الأشكال الناظمة لدول إسلاميّةٍ معاصرة"، تعبِّر عن أصول فكرته التي لا ترى في الحدود السياسيّة إلاّ عوائق ظلّت تمنع حركة الشعوب وتفاعلها الحرّ[٣٣]. ويمضي المحبوب عبد السلام ليؤكِّد التوجّه الأمميّ لحسن الترابي بقوله، إنّ سنوات الإنقاذ الأولى شهدت رفع شرط تأشيرة الدخول إلى السودان عن الإسلاميّين العرب في دول الجوار العربيّ، تمهيدًا لرفعها عن الإسلاميّين في دول الجوار الأفريقيّ، ولكن بعد أن تستتبّ الأمور أكثر بالنسبة إلى الحكم الإسلاميّ الجديد في السودان[٣٤]. وهذه النظرة هي نفسها نظرة سيد قطب الذي يرى أنّ العقيدة هي جنسيّة المسلم، وليس انتماؤه القطري[٣٥].

---

[٣١] حيدر طه، ص ١٨٦ – ١٨٧

[٣٢] فاطمة الصمادي، إيران والمقاومة: تحوّلات السياسة والمجتمع تقاوم شعارات الثورة وتفرض أولويّات جديدة، في مجموعة من الكتاب، **العرب وإيران: مراجعة في التاريخ والسياسة** (الدوحة/بيروت: المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٢)، ص ١١٧.

[٣٣] السنوات (١٩٩٠– ١٩٩٥) هي السنوات التي كان فيها حسن الترابي يمثّل المرجعيّة الفكرية والسياسيّة الأوحد للحكم القائم الآن في السودان.

[٣٤] المحبوب عبد السلام، ص ٣٢٦–٣٢٧.

[٣٥] أحمد البغدادي، الوطن في فكر جماعة الإخوان المسلمين، في **الإخوان المسلمون في الخليج**، مجموعة مؤلفين (دبي: مركز المسبار للدراسات والبحوث، ٢١٠)، ص ١٩٥.

تأثير الترابي في تلاميذه

بناءً على عديد الشواهد، يمكن القول إنّ أفكار الدكتور الترابي "الأمميّة" ليست حصرًا على مجموعته التي خرجت معه من الحكم في عام ١٩٩٩، فأفكاره مُستبطنةٌ أيضًا وسط قيادات الجناح الآخر الممسك بزمام الحكم الآن. وعلى سبيل المثال، فإنّ غازي صلاح الدين القياديّ في الحركة الإسلاميّة السودانيّة، ووزير الدولة الأسبق في وزارة الخارجيّة، خاطب عند بدايات حكم الإنقاذ، أربعةً من وزراء خارجية كينيا ويوغندا وإثيوبيا وإريتريا، وهي دولٌ تحكمها النخب المسيحيّة بصورةٍ رئيسةٍ، قائلًا: "إنّ رسالتنا ليست هي توطيد الإسلام في السودان بل نشره في أفريقيا. هذه هي رسالتنا التي أوقف مسيرتها الاستعمار، وسنبدأ حيث أوقفنا الاستعمار"[٣٦]. أمّا أمين حسن عمر، أحد أبرز المنظِّرين وسط الإسلاميّين الحاكمين اليوم في السودان، فقد ورد على لسانه:

> دعاة الحضارة العربيّة والإسلاميّة لا يطالبون بمقعد بين الأمم المتحضّرة، بل يطالبون بهذا المقعد في الطليعة والمقدِّمة. وهم لا ينافسون على مقعدٍ شاغرٍ بين الأمم المتقدِّمة، وإنّما يطرحون مشروعًا بديلًا للمشروع السائد، ويقدِّمون أنفسهم قيادةً بديلةً للعالم عن طريق التقدّم الاجتماعيّ والحضاريّ[٣٧].

وفي غمرة انفعال الإسلاميّين بتسلّم الحكم في السودان شرعوا في محاولات تصدير نموذجهم إلى الخارج، ولم تسلم السعوديّة من تحرّشاتهم، وطالها الكثير من الهجوم الإعلاميّ السافر. بل تعدّى إسلاميّو السودان جوارهم الإقليميّ المباشر، ليتدخلوا في الشأن الجزائريّ، ما دفع الجزائر إلى سحب سفيرها من السودان في عام ١٩٩٢[٣٨]. ولم تقف محاولات إسلاميّي السودان تصدير الثورة عند حدّ

---

[٣٦] منصور خالد، **جنوب السودان في المخيلة العربيّة: الصورة الزائفة والقمع التاريخي** (لندن: دار تراث للنشر، ٢٠٠٠)، ص ٦٥-٦٦.

[٣٧] أمين حسن عمر، في كتاب، **المشروع الإسلاميّ السودانيّ: قراءات في الفكر والممارسة** (الخرطوم: معهد البحوث والدراسات الاجتماعيّة، ١٩٩٥)، ص ٢٣.

[٣٨] منصور خالد، ص ٧٨.

التنظير، أو طرح النموذج الذي يجسِّد التقدّم الاجتماعيّ والحضاريّ، وإنّما تحوَّلت إلى أفعالٍ عسكريّة أيضًا. فإضافةً إلى ما أوردناه عن المعسكرات التي نظّمها الدكتور الترابي في باكستان وفي السودان لتدريب المسلّحين الإسلاميّين عابري الحدود، جرت في أديس أبابا في عام ١٩٩٥، محاولةٌ فاشلةٌ لاغتيال الرئيس المصريّ حسني مبارك، لم تُكلّل بالنجاح. وقد كشفت التحقيقات التي أُجريت حولها، أنَّ القيادات السياسيّة السودانيّة العُليا في حكومة الإنقاذ هي التي دبّرتها بالتعاون مع "الجماعة الإسلاميّة"؛ التنظيم المصريّ المتطرِّف[٣٩]. ولم تكن محاولة اغتيال الرئيس حسني مبارك في أديس أبابا عمليّةً معزولةً، وإنّما كانت جزءًا من عملٍ واسعٍ استهدفت به حكومة الإسلاميّين في السودان زعزعة دول الجوار الإقليميّ؛ مصر وإثيوبيا وإريتريا. وقد اضطرّت إريتريا لقطع علاقاتها بالسودان في عام ١٩٩٢ بسبب دعم الحكومة السودانيّة لتنظيم الجهاد الإسلاميّ الإريتيري[٤٠]، ولقد تأثَّرت علاقات إثيوبيا بالسودان كثيرًا عقب محاولة اغتيال الرئيس المصريّ حسني مبارك في أديس أبابا.

من جانبٍ آخر، توتّرت العلاقات بين إيران والجزائر، كما دار لغطٌ كبيرٌ في المغرب حول النشاط الإيرانيّ في المغرب. ويروي الحسين الزاوي أنَّ البعثة الدبلوماسيّة الإيرانيّة لدى الجزائر كانت تنشط في وسط الأحزاب الجزائرية، عقب إعلان التعدديّة الحزبيّة فيها، ومن ضمن تلك الأحزاب جبهة الإنقاذ، وكان ممثّلو البعثة الإيرانيّة يحضرون بعض التجمّعات السياسيّة. ويقول الزاوي إنَّ الحكومة الجزائرية ترى أنَّ موجة العنف التي عصفت بالجزائر آنذاك، لم يكن لها أن تأخذ تلك الأبعاد المأساويّة لولا الدّعم الذي كانت تتلقّاه الجماعات الجزائريّة المسلّحة من أطرافٍ خارجيّةٍ عديدةٍ، ومن تلك الأطراف الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة[٤١].

---

[٣٩] فتحي الضو، **الخندق: أسرار دولة الفساد والاستبداد في السودان** (القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، ٢٠١٢)، ص ٨٢ – ٨٨.

[٤٠] فتحي الضو، **السودان: سقوط الأقنعة** (د. ن، د. ت)، ص ٣٦٥.

[٤١] الحسين الزاوي، المغرب العربيّ وإيران: تحدّيات التاريخ وتقلّبات الجغرافيا السياسيّة، في: مجموعة كتاب، مجموعة من الكتاب، **العرب وإيران: مراجعة في التاريخ والسياسة** (الدوحة/بيروت: المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٢)، ص ١٩٥.

السودان وإيران بعد خروج الترابي من الحكم

وعلى الرغم من محاولة الترابي التقرّب من إيران وضمّ رؤية الإيرانيّين وجهدهم إلى رؤية وجهد المؤتمر الشعبيّ العربيّ الإسلاميّ الذي أشرف على تكوينه شخصيًّا، بغرض خلق كتلةٍ إسلاميّةٍ عابرةٍ للأقطار ذات ذراع عسكريّة، لم يغيّر خروجه من السلطة شيئًا في الميل السودانيّ الرسميّ نحو إيران. بل يمكن القول إنَّ العلاقات مع إيران ازدادت أكثر بعد المفاصلة التي أخرجت الترابي من منظومة حكم الإسلاميّين للسودان في عام ١٩٩٩. ولكن، يبدو أنَّ حكومة الإنقاذ انتهجت بعد خروج الترابي نهجًا براغماتيًّا صارخًا، وأصبحت تستخدم مختلف الأوراق التي يقود استخدامها إلى وجهات متعارضةٍ تمامًا. فقد لوحظ أنَّ أنباء التقارب السودانيّ مع إيران تزداد، كلّما ازداد الفتور من جانب الدول الخليجيّة تجاه حكومة السودان. ومن أمثلة اللعب بالأوراق التي تعكس الانتقال من النقيض إلى النقيض في مواقف الحكومة السودانيّة، عقب إخراجها الترابي من معادلة الحكم وتحسّن علاقاتها بمصر مبارك، محاولتها التقرّب إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة. فقد بلغت تلك الرغبة حدّ أن يطير مدير المخابرات السودانيّة على متن طائرة أميركيّةٍ، أُرسلت إليه خصّيصًا لكي يحضر إلى واشنطن ويسلّم وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA ملفّاتٍ تتعلّق بالمتطرّفين الإسلاميّين وتحرّكاتهم وخططهم، ممّن شاركوا في تفجير مركز التجارة الدوليّ الأوّل، وفي الهجمات على السفارة الأميركيّة في نيروبي، وفي هجمات الحادي عشر من أيلول / سبتمبر ٢٠٠١. أغضبت تلك الزيارة بعض الأميركيّين الذين رأوا فيها إعادة اعتبارٍ وقبولٍ لحكومةٍ متّهمةٍ أصلًا لديهم بإيواء الإرهابيّين وبالتطهير العرقيّ لقطاعٍ من مواطنيها[٤٢].

تعاونت الحكومة السودانيّة في تنفيذ بنود اتفاقيّة نيفاشا تعاونًا تامًّا، وقبلت بالاستفتاء الذي قاد إلى فصل جنوب السودان عن شماله، وقبلت نتيجته، واعترفت بدولة الجنوب الوليدة، مؤمّلةً في أن يؤدّي كلّ ذلك إلى تطبيع علاقاتاتها مع الولايات المتّحدة الأميركيّة وإلى رفع العقوبات عنها، وإلغاء

---

[٤٢] سكوت شين، "لقاء سي آي آيه بالمسؤول الأمنيّ الأوّل في السودان يغضب بعض الأميركيّين"، **نيويورك تايمز**، ٢٠ يونيو ٢٠٠٥.

الديون التي أثقلت كاهل الدولة السودانيّة. غير أنَّ كلّ ذلك لم يغيِّر شيئًا في الموقف الأميركيّ تجاه حكومة الإسلاميّين في السودان، ومن استمرار العقوبات والعزلة المفروضة عليها.

على الرغم من أن الدعم السوداني للقضية الفلسطينية ظل ثابتًا عبر مختلف العهود، وأن دعم الإسلاميين في السودان للقضية الفلسطينية لم يخرج عن خطٍ ظل ثابتًا في السياسات السودانية، فإن ظلالاً من الشك ربّما تحوم حول تصعيد تسهيل الدعم الإيراني لحماس عبر السودان بسبب حالة الاحباط التي اعترت الحكومة السودانيّة لفشل جهدها في التطبيع مع أميركا. فقد اشتدت في السنوات الأخيرة حركة نقل الأسلحة الإيرانيّة إلى قطاع غزّة، عبر السودان لتواصل سيرها عبر مصر، ثم إلى سيناء، فغزّة. ولقد استهدفت إسرائيل بالطائرات في عام ٢٠٠٩ رتلًا مكوَّنًا من ثلاثٍ وعشرين شاحنة محمّلة بالسلاح، ودمّرته. وقضى في تلك الهجمة نحو أربعين شخصًا ممّن كانوا على متن ذلك الرّتل[٤٣]. وتعدَّدت الضّربات الإسرائيليّة لقوافل السلاح وللأفراد المشتبه في كونهم جزءًا من تلك العمليّات المتعلّقة بتهريب السّلاح عبر شرق السودان. وكانت أكبر الضربات الجوّية الإسرائيليّة تلك التي تلقّاها مصنع اليرموك للأسلحة في الخرطوم في نهاية تشرين الأوّل / أكتوبر عام ٢٠١٢. وأوردت صحيفة الغارديان البريطانيّة أنَّ تسريباتٍ تقول إنَّ اغتيال القيادي الفلسطينيّ محمود المبحوح في فندقٍ في مدينة دبي وعثور الموساد على أوراقٍ مهمّةٍ في حقيبةٍ كانت بحوزته، هو الذي مكّن الإسرائيليّين من التعرّف على كثيرٍ من المعلومات المتعلّقة بعلاقة السودان بمرور صواريخ فجر الإيرانيّة إلى غزّة[٤٤].

مثّلت الضربة الإسرائيليّة التي استهدفت مصنع اليرموك للسّلاح في الخرطوم في نهايات تشرين الأوّل / أكتوبر ٢٠١٢، تطوّرًا نوعيًّا في الاستهداف الإسرائيليّ لأنشطة الحكومة السودانيّة. ويبدو أنَّ إسرائيل أصبحت ترى أنَّ السودان قد أسهم في فتح جبهة ردعٍ جديدةٍ عليها تتمركز في

---

[43] Time Staff, “How Israel Foiled an Arms Convoy Bound for Hamas”, *Time*, 3L3L2009.

Read more:

http://www.time.com/time/world/article/0,8599,1888352,00.html

[44] Ian Black, “Israeli attack' on Sudanese arms factory offers glimpse of secret war”, *The Guardian*, 25/10/2012.

http://www.guardian.co.uk/world/2012/oct/25/israeli-sudanese-factory-secret-war.

قطاع غزّة الذي تصله الصواريخ عن طريق السودان. كما تتمركز جبهة الرّدع هذه في منطقة البحر الأحمر بعد أن أصبحت السفن الحربيّة الإيرانيّة تلقى تسهيلاتٍ في موانئه، خاصّةً في السودان. ويزعم الإسرائيليّون أنَّ الرئيس السودانيّ عمر البشير أعطى الإيرانيّين الضّوء الأخضر لإنشاء قواعدَ عسكريّة إيرانيّة على التراب السودانيّ. كما ذكروا أنَّ الصواريخ الإيرانيّة، إذا ما جرى نصبها في السودان، فإنَّ بوسعها أن تصل إلى جنوب إسرائيل ووسطها[٤٥]. وحين قامت قطعٌ من الأسطول الإيرانيّ بزيارة ميناء بورتسودان على ساحل البحر الأحمر، عقب الضربة الإسرائيليّة لمصنع اليرموك في الخرطوم، زعم الإسرائيليّون أنَّ ذلك جزءٌ من جهد إنشاء قاعدة بحريّة إيرانيّة حول ميناء بورتسودان[٤٦]. غير أنَّ الحكومة السودانيّة نفت تلك المزاعم. كما أكَّدت أنَّ زيارة البوارج الإيرانيّة كانت روتينيّة. وتردَّدت أنباء أنَّ البوارج الإيرانيّة ذاتها والتي رفضت الحكومة السودانيّة استقبالها في شباط / فبراير ٢٠١٢، رست في ميناء جدّة السعودي، ووصف بيانٌ من الخارجيّة السعوديّة رسوّها بأنَّه روتيني. ولكن، قناة برس تي في Press TV الإيرانيّة أوردت من الجانب الآخر، أنَّ الأدميرال حبيب الله سياري أكَّد أنَّ إيران قد أخذت تضاعف وجودها العسكريّ في المياه الدوليّة منذ العام الماضي، فقد قامت بنشر سفنٍ في المحيط الهنديّ، كما قامت بإرسال قطعتين بحريّتين، ولأوّل مرّة، عبر قناة السويس إلى البحر الأبيض المتوسّط، في شباط / فبراير ٢٠١١. وأكَّد سياري أنَّ المقصود من كلّ ذلك الانتشار هو حماية مصالح الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة[٤٧]. ولا يمكن لمحلّلٍ سياسيّ أن يفصل بين هذا الانتشار الواسع لبحريّة إيران والنزاع القائم الآن حول برنامجها النوويّ واحتمالات ضربه عسكريًّا.

---

[45] Steve Waltz, “Iran and Sudan Deepen Cooperation Against Israeli Military Efforts in Africa”, *Pan African Newswire*, December, 13, 2012.

http://panafricannews.blogspot.com/2012/12/iran-and-sudan-deepen-cooperation.html.

[46] Joanna Praszczuk, “Khartoum allowing Iran to establish Red Sea base”, *Jerusalem Post*. 12/11/2012.

[٤٧] "الأسطول الإيرانيّ ينتشر في المياه الدوليّة"، صفحة **برس تي في** الإيرانيّة على شبكة الإنترنت، ٣ /٩/ ٢٠١٢.

http://www.presstv.ir/detail/2012/09/03/259610/iran-navy-to-expand-intl-presence/

الانقسام داخل الحكومة السودانيّة

عقب قصف إسرائيل مصنع اليرموك في الخرطوم، احتدم الجدل السياسيّ في السودان بشأن العلاقة مع إيران، وطفحت على السطح انقساماتٌ حادّةٌ وسط المجموعة الحاكمة. ففي اللقاء المتلفز لوزير الخارجيّة السودانيّة، علي أحمد كرتي، على قناة النيل الأزرق، في ٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٢، ذكر الوزير أنَّ وزارته لم يكن لديها علمٌ البتّة بزيارة المدمِّرتين الإيرانيّتين لميناء بورتسودان، وأنَّه سمع بتلك الزيارة من أجهزة الإعلام[٤٨]. وأضاف وزير الخارجيّة أنَّ إيران سبق أن طلبت زيارة المدمِّرتين، وقد كانت توصية وزارة الخارجيّة برفض الطلب، ورُفض بالفعل. وقد علَّق الصحافي السودانيّ عادل الباز، على كلّ ذلك بقوله:

> فإذا كانت الحكومة قد اعتذرت عن استقبال البوارج فمن الذي سمح لها بالوصول إلى مياهنا الإقليميّة والبقاء فيها أربعة أيام؟! فهل هناك جسم خارج الحكومة يقرِّر، أم أنَّ متنفّذين داخل الحكومة على صلةٍ بالمحور الإيرانيّ أصبحوا قادرين على تمرير أجنداتهم رغم أنف الحكومة أو من وراء ظهرها[٤٩]؟!

ويضيف الباز أنَّ وزير الخارجيّة أكَّد أنَّ "هنالك خلافات داخل الحكومة حول التعاون مع إيران". ويستطرد قائلًا:

---

[٤٨] برنامج "حتّى تكتمل الصورة"، لقاء الطاهر حسن التوم بالوزير علي كرتي، **تلفزيون النيل الأزرق**، ٣ /١١/ ٢٠١٢.

مقطع فيديو الحلقة على موقع يوتيوب:

http://www.youtube.com/watch?v=rC9EnG0agHQ

[٤٩] عادل الباز، "شكرا كرتي الصورة لم تكتمل"، **صحيفة الصحافة السودانيّة**، العدد: ٦٩٠١، ٦ /١١/ ٢٠١٢.

من الطبيعي أن يكون هناك خلافٌ داخل الحكومة حول السياسة الخارجيّة في الأمور الثانوية كتقديرات المواقف التي يتّخذها صنّاع القرار في الشؤون المتحرّكة. ولكن، من الغريب فعلًا أن يحدث خلافٌ على إستراتيجية الدولة حول شأنٍ رئيسٍ، كالتحالفات بالمنطقة[٥٠].

المشهد الجديد

أخذ المشهد الجيوستراتيجي في التغيُّر في منطقة الشرق الأوسط نتيجةً للثورات العربيّة التي طرحت واقعًا جيوبوليتيكيًّا جديدًا لم تكتمل صورته بعد، فهذه الصورة لا تزال قيد التّخَلُّق، كما أنَّها منفتحة على مختلف الاحتمالات. وصعود التيّارات الإسلاميّة في دولٍ محوريّةٍ مثل مصر وتونس، إضافةً إلى سيطرة الإسلاميّين على الحكم في السودان منذ عام ١٩٨٩، واحتمال وصول الإسلاميّين إلى الحكم في بلدانٍ أخرى كالأردن والكويت، وربّما غيرها، يطرح – وبالضرورة – مخاوفَ لدى دولٍ عربيّةٍ كثيرةٍ خاصّةً الدول الخليجيّة، كما يطرح في الوقت ذاته تساؤلاتٍ بشأن عدّة قضايا ملحّة أخذت تطرح نفسها وبشدّة؛ من تلك القضايا:

- مدى استعداد التيّارات الإسلاميّة التي وصلت إلى الحكم، والتي ربّما تصل إلى الحكم في الفترة المقبلة، للتخلّي عن خطط التثوير العابرة للدولة القطريّة المندرجة في أصل أدبيّات الإخوان المسلمين، وهي أدبيّاتٌ يتبنّاها التنظيم الدوليّ للإخوان المسلمين. ولقد اتّضح ذلك في حرب الكويت حين وقف التنظيم العالمي ضدّ إخراج العراق من الكويت ما سبّب حرجًا كبيرًا لإخوان الكويت الذين أعلنوا أنّهم جمّدوا عضويّتهم فيه[٥١]. وعمومًا، فإنّ الرّؤى الأساسية لتنظيم الإخوان لا تنفكّ تطفح على السطح أحيانًا. إذ ورد على لسان إسماعيل هنية، رئيس السلطة المقالة في غزّة قوله، إنّ الربيع العربيّ سوف يفتح صفحات الخلافة الراشدة، وأنّ دور الأنظمة التي سقطت كان منصبًّا في منع

---

[٥٠] عادل الباز، المصدر نفسه.

[٥١] أحمد البغدادي، ص ٢٠٣.

عودة هذه الخلافة، وفي ضمان أمن إسرائيل[٥٢]. فهل سيعترف الإخوان المسلمون حقيقةً، وليس "تقِيَّةً"، بحدود الدولة القطريّة، ولا يتّجهون إلى تصدير الثورات وزعزعة الاستقرار في الدول العربيّة الأخرى؟ الإجابة عن هذا السؤال ربّما ترتّب عليها توفُّرُ فرصٍ لقيام تعاونٍ عربيٍّ جديد في أفقٍ سياسيّ إقليميٍّ جديد. أو ربّما انفتح، بناءً عليها أيضًا، الباب إلى نزاعٍ جديدٍ بين التيّار الإسلاميّ الذي اعتلى موجة المدّ الديمقراطيّ، والدول العربيّة ذات الأنظمة الملكيّة بمختلف صورها. فالمنطقة ربّما تكون مرشّحةً لانقسامٍ جديدٍ يشابه، من بعض الوجوه، الانقسام الذي كان سائدًا في أوج موجة المدّ العروبيّ في ستينيّات القرن الماضي، حين مارست القوميّة العربيّة نهج تصدير الثورة وفقًا لفهمها للثورات. فمصر الناصريّة، ومن اصطفّوا وراءها، قسّموا العالم العربيّ إلى كيانين؛ أحدهما "تقدّمي" والآخر "رجعي"، وبناءً على هذا التقسيم أرسل الرئيس المصريّ جمال عبد الناصر قوّاتٍ مصريّة لتقف إلى جانب الجمهوريّين في اليمن في حربهم مع الملكيّين، وليشهد اليمن حربًا بالوكالة أطرافها عربيّة استمرّت سبع سنوات. وأنشأت الجمهوريّة العربيّة المتّحدة، في الحقبة الناصريّة، جهازًا إعلاميًّا كان الأضخم والأقوى من نوعه في العالم العربيّ، ركّز هجومه على المملكة العربيّة السعوديّة وعلى الأنظمة الملكيّة العربيّة. وبطبيعة الحال فإن السعودية لم تكن براءً من استهدافٍ للنظام الناصري في مصر. الشاهد، أن استقطابًا حادًّا حدث وسط الدول العربيّة في ما بينها، كما جرّها إلى الانقسام في الولاء تجاه المعسكرين الدوليّين الكبيرين بقيادة أميركا والاتّحاد السوفييتي. فهل سيحدث صعود التيّار الإخواني إلى الحكم في بعض الدول العربيّة حالة استقطابٍ حادّة جديدة، أم أنَّ اتّساع نطاق ثورات الربيع العربيّ وتنزيل شعارات الربيع العربيّ إلى أرض الواقع، سوف يُترك لكلِّ أهل بلدٍ ليكيّفوا أوضاعهم وفقًا لواقعهم القطري، ويصوغوا التضامن العربيّ دون إملاءٍ خارجيٍّ؟

- مثّل مرور السفن الحربيّة الإيرانيّة من خلال قناة السويس إلى البحر الأحمر حدثًا استثنائيًّا بكلِّ المقاييس. وهو ما كان ليحدث في فترة حكم الرئيس حسني مبارك. في هذا الوقت نفسه الذي يمثّل فيه مرور السفن الإيرانيّة متغيِّرًا جديدًا في العلاقات المصريّة الإيرانيّة، ويمثّل بالضرورة دعمًا لقضيّة العرب المركزيّة في فلسطين، نجد إيران تسهم إسهامًا معلنًا في سياسات ذات صبغةٍ طائفية تزعزع الاستقرار في مملكة البحرين التي تحتاج فعلاً إلى الإصلاح الديمقراطي. كما أنّها تدعم الحوثيّين في اليمن، وتدعم الأسد في سورية. وأخطر من كلّ ذلك، تزيد إيران من وجودها العسكريّ في البحر الأحمر، خاصّةً في السودان وإريتريا. ولكن، نجد من الناحية الأخرى أنّ عبور البارجتين الحربيّتين

[٥٢] "هنية: الربيع العربي سيفتح صفحات الخلافة"، صحيفة **العرب** القطرية، ٢٠١٢/٧/٢٠.

الإيرانيّتين قناة السويس إلى مياه المتوسّط مثّل ضغطًا بقدرٍ ما على إسرائيل. ودلّ هذا العبور، في الوقت نفسه، على انفلات مصر من القبضة الإسرائيليّة الأميركيّة في صنع قرارها الوطني. كما يمكن أن يُضاف إلى ذلك أنّ تعاون الدولة السودانيّة مع الإيرانيّين في تهريب السلاح الإيرانيّ إلى غزّة، أتاح لحركة حماس وضعًا ردعيًّا عسكريًا ووضعًا تفاوضيًّا أفضل مع الإسرائيليّين، دلّ عليه ما جرى في الحرب الأخيرة. لكن، في الوقت نفسه، يثير التعاون السودانيّ الإيرانيّ، بالضرورة، مخاوف السعوديّين والخليجيين الذين من ناحيتهم لم يفعلوا شيئًا لحماية غزة أو لدعمها في مرحلة الحصار. لذلك، يمكن القول إنّ هذا الوضع الجديد شديد التعقيد، ففوائده ومخاطره مقسّمة على عدة سلال.

تستفيد الحكومة الإسلاميّة في السودان، وهي حكومة الإسلاميّين الوحيدة في العالم العربيّ التي لم تصل إلى السلطة عن طريق صندوق الاقتراع، من الدّعم الإيرانيّ لها في تثبيت أركان حكمها، خاصّةً مدّها بالسلاح في حروبها الدائرة الآن مع حركات الهامش المسلّحة، في كلٍّ من جنوب كردفان والنيل الأزرق، ممّا يضعف كفّة قوى المعارضة السودانيّة المدنيّة، ويقوّي النزعات الانفصاليّة الحاملة للسلاح، ممّا يزيد من فرص التفتيت. ويزيد الدّعم الإيرانيّ غير المشروط لحكومة الإسلاميّين في السودان، من نفور سودانيّي الهوامش تجاه الدول العربيّة والإسلاميّة التي وقفت دائمًا إلى جانب المكوّن العربيّ الإسلاميّ في السودان في نزاعه مع الأقليّات المهمّشة التي تطالب بحقوقها.

- انخراط حكومة السودان في عمليّات تهريب الأسلحة إلى غزّة، وما يتردّد عن نيّتها إنشاء قواعد عسكريّة بريّة وبحريّة للإيرانيّين في أراضي السودان، وإعلانها نفسها دولةَ مواجهةٍ لإسرائيل يجعلها هدفًا للآلة العسكريّة الإسرائيليّة. ولسوف يقلق هذا الوضع قطاعًا كبيرًا من القوى السياسيّة السودانيّة التي على الرغم من دعمها الحقّ العربيّ وقضية فلسطين، لا ترى أنّ من الحكمة أن يجعل السودان من نفسه دولة مواجهة مع إسرائيل، وهو أصلا دولة بلا قدرات. كما أنّ ازدياد التقارب السودانيّ الإيرانيّ سوف يدفع إسرائيل إلى تكثيف أنشطتها عبر دول الجوار السودانيّ صوب الداخل السودانيّ، وهي أنشطةٌ تهدف أصلًا إلى تفتيت السودان وإخراجه بالمرّة من أيّ دورٍ يمكن أن يقوم به في الصراع العربيّ الإسرائيليّ. فهل في وسع إيران، وهل في نيّتها أصلًا، أن تدافع عن السودان مهْما كانت المحاذير والكلفة؟ وهل هي فعلاً حليفٌ مقتدرٌ يُعتمد عليه، أم أنّها تستخدم السودان، وتعينه بما يتيحه لها ظرفها، وبما تمليه عليها حاجتها؟ خاصّةً وأنّ إيران تعاني حاليًّا من وطأة العقوبات التي تتزايد عليها، ممّا أدّى إلى انخفاض إنتاجها النفطي بمعدّل مليون برميل في اليوم، إضافةً إلى انخفاض سعر عملتها.

- يتساءل كثير من السودانيّين عن الكيفية التي ستتعامل بها الحكومة المصريّة التي يديرها

الإسلاميّون، وهي حكومة منتخبة، مع الحكومة السودانيّة التي يديرها الإسلاميّون، وهي حكومة غير منتخبة، وجاءت أصلًا عن طريق انقلابٍ عسكريّ، وتدّعي الشرعيّة لكونها تجري انتخاباتٍ شبيهة بالتي كانت تُجرى في مصر في عهد مبارك؟ كيف ستقف الحكومة المصريّة في الصراع الدائر، ولوقتٍ طويلٍ جدًّا بين الحكومة السودانيّة من جهة، وقوى المعارضة وحركات الهامش المسلّحة من الجهة الأخرى؟ كيف ترى مصر التقارب السودانيّ الإيرانيّ، خاصّةً الوجود العسكريّ الإيرانيّ القائم حاليًّا والمحتمل مستقبلًا على أراضي السودان ومياهه، ولا حاجة بي هنا إلى الإشارة إلى أنَّ أمن مصر والسودان متداخلٌ تداخلًا عضويًّا نادر الشبيه. كيف ترى مصر هذا التغلغل الإيرانيّ المتعدِّد الوجوه في أفريقيا، ومصر هي المرشّحة لكي تصبح القوّة الإقليميّة الرابعة في المنطقة شأنها شأن إسرائيل وتركيا وإيران؟ وفي الوقت الذي نطرح فيه هذه التساؤلات، ترشح أخبار بأنّ حكومة مرسي أخذت تتفاوض سرًّا مع الإيرانيّين ممثّلين في قاسم سليماني رئيس الاستخبارات الإيرانيّة أثناء زيارته للقاهرة، وذلك من أجل تعاونٍ استخباراتي وأمنيّ للسيطرة على الجيش المصريّ، لتثبيت أركان حكمها[٥٣]. وقد نفت الحكومة المصريّة ذلك.

وسط كلّ هذه التناقضات والتشابكات واختلاط الجيوستراتيجي بالتكتيكي ممّا وفّر لإيران موقعًا معتبرًا في الصراع العربيّ الإسرائيليّ، هل هناك فرصة لتوافقٍ عربيٍّ – عربيٍّ، من جهة، وتوافقٍ عربيٍّ– إيرانيٍّ، من الجهة الأخرى، بشأن كيفيّة إدارة المنطقة على أساسٍ من شراكة الهدف الكلّي في الانعتاق من ربقة الهيمنة وضعضعة القوّة العربية التي تمارسها الولايات المتّحدة الأميركيّة؟ وهل هناك ما يبشّر بانحسارٍ حقيقيٍّ لنزعات الاستهداف المتبادل، عربيًّا – عربيًّا، وعربيًّا – إيرانيًّا؟ أم أنَّ جهد مقاومة الهيمنة سوف يسير في شعبتين: إحداهما ضدّ الهيمنة الغربيّة والأخرى ضدّ الهيمنة الإيرانيّة، أو على الأقلّ في حصر العامل الإيرانيّ في منطقة الشراكة الإقليميّة والانتفاع المتبادل، لا الهيمنة.

---

53 Hugh Tomlinson, "Iranian spy chief's visit to Cairo was meant to 'send a message to America", *The Times* (Middle East Issue), viewed 9/1/2013.

http://www.thetimes.co.uk/tto/news/world/middleeast/article3650461.ece.

خاتمة

يعود التقارب الإيرانيّ السودانيّ إلى سبعينيات القرن الماضي عندما أنعشت الثورة الإيرانيّة في إسلاميّي السودان آمال التثوير في الوجهة الإسلاميّة. ويمكن القول إنّ نظرة الدكتور الترابي التي تأسّست عليها الحركة الإسلاميّة في السودان، نزعة عابرة للأقطار، وهي نزعةٌ راسخةٌ في فكر كبار مؤسّسي الدعوة الإخوانيّة مثل سيد قطب، وهي لا تزال مُتبنّاةً بواسطة التنظيم الدوليّ للإخوان المسلمين. كان سعي الترابي ولا يزال، إنشاء كتلة إسلاميّة ثالثة لمواجهة الهيمنة الغربيّة، ويلتقي ذلك بنهج الإيرانيّين في ما يسمّونه مقاومة "الاستكبار" الأميركيّ. غير أنَّ الترابي خرج من السلطة، وأخفق انقلاب الإسلاميّين في السودان في تحقيق أهدافه على كلّ المستويات؛ المحلّي، والإقليميّ، والدوليّ، كما حوصر عربيًّا، وأفريقيًّا، ودوليًّا. ولا تزال آليّات الحصار مطبقةً على عنقه وفي الوقت نفسه أصبحت إيران محاصرةً ومعزولةً بسبب برنامجها النووي. يواجه السودان عزلةً دوليّةً وإقليميّةً، وأزمةً اقتصاديّةً طاحنةً بعد انفصال الجنوب، وذهاب ريع البترول. وقد أصبح حكم الإسلاميّين في السودان، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، في حاجةٍ إلى مُعينٍ خارجيٍّ: فحكومتهم التي تقاتل الجماعات المسلّحة في مختلف أقاليم السودان، في حاجةٍ إلى المال والسلاح. كلّ هذه الأوضاع مجتمعةً قادت إلى التقارب السودانيّ الإيرانيّ، خاصّةً في ظلّ النظرة الخليجيّة نحو حكومة السودان التي لا تخلو من ريبةٍ ومن فتور. فكيف سيفصل العرب بين التكتيكي والإستراتيجي في احتواء حكومة الإسلاميّين في السودان وتحجيمها من جهة، وفي بذل المال والعون للحفاظ على القطر السوداني، من الجهة الأخرى؟

وجدت إيران في السودان معبرًا ممتازًا لإرسال الأسلحة لقطاع غزّة، ممّا أعطاها ثقلًا إقليميًّا وزعامةً إسلاميّةً لتظهر بمظهر القوّة الوحيدة الجادّة عمليًّا في دعم قضيّة العرب المركزيّة في فلسطين. غير أن ما يساعدها في ذلك هو تخلي النظام العربي الرسمي عن مقاومة إسرائيل. ولقد ظلّت إيران تطلب هذه الزعامة الإسلاميّة طلبًا حثيثًا. ووجدت إيران مرتكزًا لها في البحر الأحمر، وفرصةً لتوسيع وتنويع نطاق منظومة الردع التي تقي بها نفسها من شرور إسرائيل، وتنويعها. وما من شكّ في أنَّ الدور الإيرانيّ في جنوب لبنان الذي ظهر في قدرات حزب الله العسكريّة في حرب ٢٠٠٦، ودور السلاح الإيرانيّ الذي ظهر في حرب ٢٠١٢، بين الإسرائيليّين وحكومة حماس المقالة، قد أسهم إسهامًا كبيرًا في قلب موازين القوى بين إسرائيل ومحيطها الإقليميّ القريب. وبوجود الإسلاميّين في الحكم في مصر، فإنَّ هذا الانقلاب في ميزان القوى مع إسرائيل مرشّح لمزيد من الزيادة. غير أنَّ هذا التحالف التكتيكي بين إيران والإسلاميّين العرب في غزّة وفي السودان، لن يقف في قلبه لموازين القوى عند حدّ إسرائيل وحدها. فهو بالقطع ذو آثارٍ ممتدّةٍ تطال ما هو إستراتيجي في منظومة الأمن القوميّ العربيّ، ما لم تصبح إيران جزءًا مكمِّلًا لمنظومة الأمن العربيّ، وفق معادلة

متوازنة لا تبدل هيمنة دولية بهيمنة إقليمية. ولا يبدو أنّ إيجاد هذه المعادلة المتوازنة من الأحلام السهلة المنال.

ظلَّت الدول العربيّة تترصّد بعضها بعضًا، وتتآمر على بعضها بعضًا، وتُضعف أمن بعضها بعضًا. وفي حالة السودان، نجد أنّ دولاً عربيّة أسهمت في دعم حركات التمرّد في الجنوب، خاصّةً ليبيا أثناء حكم القذافي، إذ دعمت التمرّد في الجنوب وفي دارفور[٥٤]. كما دعمت دولة خليجيّة مؤتمر القضايا المصيريّة في أسمرا ١٩٩٥. ويورد وليد عبد الحي أنَّ البيانات الكميّة المتوفرة تدلّ على أنَّ الدول العربيّة تعرّضت للتهديد الأمنيّ من جانب بعضها بعضًا، في الفترة ما بين عام ١٩٤٧ وعام ٢٠١٠، ما مجموعه ٣٧ مرّةً، أي بمعدّل مرّة كلّ ١٠٧ سنوات وهو معدّل يؤكّد على حالة عدم الاستقرار في العلاقات العربيّة البينيّة[٥٥]. واستنادًا إلى هذا التاريخ من العدائيّات المتبادلة، فإنَّ المرحلة التي نمرّ بها الآن، تطرح تحدّياتٍ جديدةً غير مسبوقة. فلو سار التيّار الإسلاميّ في وجهة إشعال الثورات في الدول التي لم تشهد ثوراتٍ حتّى الآن، وانصرف عن بناء الدولة الوطنيّة، معطيًا الأولويّة لتحقيق حالة ثوريّة إسلاميّة عامّة في الدول العربيّة مثلما كان ينوي حسن الترابي، فإنَّ الباب سوف ينفتح على استقطابٍ جديد وصراعٍ جديد، غالبًا ما يؤدّي إلى إهدارٍ ضخمٍ للطاقات وللموارد وللوقت. وهو صراعٌ لن يقف فيه الغرب مكتوف الأيدي، وإنّما سيسعى للتأثير في مجرياته، بما يخدم أهدافه الإستراتيجيّة في المنطقة. كما لن تقف فيه القوى الأخرى التي أصبحت تقاوم سلطة القطبيّة الواحدة، كروسيا والصين، مكتوفة الأيدي. يضاف إلى ذلك القوى الإقليمية المؤثّرة مثل إيران وتركيا. ولذلك فربّما يدخل الوطن العربيّ في دوّامةٍ جديدةٍ من إهدار الطاقات والموارد والوقت مماثلة، من وجوه كثيرةٍ، لتلك التي جرت في العقود الثلاثة الأخيرة من حقبة الحرب الباردة.

يجمع بين العرب وإيران مشتركٌ كبيرٌ؛ فكلاهما ضحيّة الهيمنة الغربيّة، ومحاولات فرض أجندتها، ووضع مصالحها فوق كلّ مصلحةٍ إقليمية. كما أنَّ العرب وإيران شريكان في رسم الخريطة الجيوستراتيجية للمنطقة، ولا يمكن تحقيق أمنٍ إقليميٍّ دون الأخذ في الاعتبار هذه الشراكة. يرى عزمي بشارة، أنَّ "التشويه الأساسيّ لأيّ حالة من حالات العلاقة، أكانت تنافسًا أم تعاونًا أم صراعًا،

---

[٥٤] تصريح وزير الخارجيّة السودانيّ علي أحمد كرتي لوكالة الأنباء الكويتية في ٢٨ نوفمبر ٢٠١٢، لدى زيارته مدينة بنغازي في ليبيا.

[٥٥] وليد عبد الحي، "النظام العربيّ كنظام مخترق"، دراسة مقدّمة في **مؤتمر تحوّلات جيوستراتيجية في سياق الثورات العربيّة**، المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ١٥-١٢/١٧/ ٢٠١٢.

هو غياب طرفٍ عربيٍّ موحّد أو متّحد في وضع إستراتيجيّ في التنافس أو الصراع أو التعاون مع إيران"[٥٦]. وفي تقديري أنَّه بمقدار ما تحلّى الإسلاميّون الذين صعدوا إلى سدّة الحكم نتيجةً للثورات العربيّة، بالحكمة والرَّوِيّة وبعد النظر والانعتاق من قبضة الأيديولوجيا، ونزعة التثوير العابرة للأقطار، أمكن أن توضع العلاقات الإيرانيّة العربيّة في إطارها الإيجابي الصحيح والمنتج.

أمّا الحالة السودانيّة موضوع هذه الورقة، فإنّها في حاجة إلى معالجةٍ عربيّةٍ حكيمةٍ. إذ إنّ الحكومات التي لا تحظى بشعبيّة حقيقيّة، والتي غالبًا ما تفشل في مواجهات تحديّات التنمية، وتفشل في تحقيق الاستقرار وفي الاستجابة إلى تطلّعات مواطنيها، تضطرّ إلى اتّباع النهج البراغماتي الذي يتعامى عن الثوابت. وتختلط الأوراق في هذا النهج البراغماتي اختلاطًا ذريعًا، فيقضي الإستراتيجي الطويل الأمد نحبه، على مذبح التكتيكي المؤقّت الذي لا يرى، بحكم حاجته الضاغطة، سوى المخارج المؤقّتة.

---

[٥٦] عزمي بشارة، ص ٢٦.